

بعد أن غدته مبادئ النحو التوليديّ فتحدّد عندئذ موضوعه بدراسة ظاهرة الكلام كيف تنشأ لدى الباحث، وظاهرة الإدراك كيف تتحقّق لدى المتقبّل، وهكذا تميّز هذا العلم الوليد تماما عما كان يسمّى بعلم نفس الكلام (أو سيكولوجيّة اللغة).

\* \* \*

فالنّاظر اللّسانيّ المتشبع بالمضامين الشعريّة عند أبي الطّيب المتنبيّ إذا ما احتكم إلى كلا المعينين النّقديّين استطاع أن يصادر على تقريرين اثنين، أولهما: أنّ شخصيّة المتنبيّ في أدبه شخصيّة اصطداميّة يتجاذبها قطبان متباينان إيجابا وسلبا، وثانيهما أنّ صراع القوى الشخصانيّة عند الشّاعر قد تفجّر في علاقات تقابليّة على الصّعيد اللّغويّ ممّا أدى إلى بروز شبكة من الروابط الثنائيّة دلاليّا ونغميّا في نفس الوقت.

ومدار ما نصادر عليه أنّ المتنبيّ قد تعلق به طموح في الحياة مشطّ وهو ما غدا إحدى مسلّمات النّقاد، قديمهم وحديثهم، غير أنّ هذا الطّموح قد تجلّد حتّى تحوّل مركّب علوّ، وحقيقة المركّب في علم النّفس أنّه ظاهرة مدفونة في اللاّوعي، معنى ذلك أنّ المتلبّس بها لا يحسّ بها إحساس الآخريّن، أي إنّّه لا يعي شذوذها أو خروجها عن الأنماط القائمة، فإذا أحسّ بها، وهي في نفسه، إحساس النّاس بها فيه تحرّرت من اللاّوعي وطفنت على سطح الشّعور. والمتنبيّ طموح واع بطموحه وعيا لا يزيده إلّا تعلقا به وإن شدّ أو شطّ، حتّى إنّّه يتقمّص التّحدّيّ دفاعا عن علوّ المطامح فيستحيل اللفظ لديه تمرّدا على الحقيقة القائمة، وهذا هو الذي ينزل الطّموح عند المتنبيّ منزل المركّب النّفسانيّ.